قراءة معاصرة في فكر الشيخ شمس الدين

تعقيب على محاضرة ألقيت في منتدى الثلاثاء الثقافي بتاريخ ٤ رجب ١٤٤٢هـ الموافق ١٦ فبراير ٢٠٢١م

الأستاذ طانيوس شهوان

كاتب لبناني وباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية. مدير مؤسّسة «غلوبل فيجن» للدراسات والأبحاث الاستراتيجية. صدر له «قراءة مارونية في الزمن الآتي».

١. مقدمة

لن أقع في مداخلتي هذه في وحول المحنة اللبنانية، وفق ما طلبه القيمون عن هذا المنتدى الكريم. غير أن التأمل في مسارات الإمام محمد مهدي شمس الدين والتفكر في اسهاماته لا يستقيمان ما لم تتخذ كل تلك المسارات والاسهامات موقعها في العمارة السياسية اللبنانية، وفي سياقات التثاقف في المجال الاجتماعي الثقافي والديني اللبناني، القادر وحده على إعطاء المعنى الفلسفي والاجتماعي لفكر الإمام شمس الدين ومقارباته السياسية والاجتماعية.

٢. رائد ترسيم الحدود بين الداخل والخارج

لطالما كانت المحن اللبنانية الكبرى محن ترسيم حدود ما بين الداخل والخارج، ما بين الداخل الديني والاجتماعي والثقافي والسياسي اللبناني، والخارج الباحث عن أرض لاستثمار مصالحه وتحقيقها. فالصراع الإقليمي والدولي على لبنان ضارب في عمق التاريخ اللبناني الذي مثل ولا يزال على ما يبدو «مستجمعاً

للاستراتيجيات الدولية» وفق ما قاله رئيس وزراء إيطاليا الأسبق رومانو برودي. ويدلّل القانون التاريخي على هذا الصعيد أن الصراع في لبنان مركب، يتمفصل فيه الداخلي والاقليمي والدولي على السواء؛ فلبنان هو في صميم المسألة الشرقية وهو بوابة رئيسية إلى بلدان الشرق الأوسط. فلا يمكن مقاربة فكر الإمام شمس الدين إلا من خلال سوقه في فضاء «المحنة اللبنانية». فمحنة لبنان هي محنة الوقوع في تجربة الانحياز لمشاريع أممية تتخطى الحدود، وتستدعي مفاهيم مجالية متنافرة، كالمشرق عوضاً عن العروبة، والهلالات الطائفية عوضاً عن الهلالات الثقافية؛ إنها التجربة التي مانعها الإمام شمس الدين، وحدد من خلال إمعانه التفكر فيها، مخرج الشيعة الاثني عشرية في لبنان من نفق الأممية، التي هي فيه، والذي يتماهى فيه العقدي والوطني بطريقة قاتلة وانتحارية. فأصل هذه القناعة في مفهوم «ولاية الأمة على نفسها»، ودافع عن نهائية الكيان اللبناني إذ أكد أنه «سيكون البلد العربي الآخر في حال قيام بلد عربي واحد من طنجة إلى عدن». فكان بذلك أحد رواد مدرسة التوازن اللبناني الدقيق ومنظريها.

٣. معلم في مدرسة التوازن اللبناني

إن انتماء الشيخ شمس الدين إلى مدرسة التوازن اللبناني وفلسفتها هو في الواقع انتماء إلى الطائفة الأكثر أقلوية في لبنان على المستوى الطائفي، ولكن الأكثر رؤيوية وحكمة على المستوى الوطني. وتؤكد الخبرة التاريخية أن منظري مدرسة التوازن اللبناني الدقيق كانوا الضمانة لطوائفهم في ساعات الاستحقاقات الكبرى.

في التاريخ الحديث في العام ١٩٢٠م، كان خيار البطريرك الحويك

خياراً أقلوياً على مستوى طائفته الجانحة إلى الهروب من كل فضاء إسلامي، والراغبة في تثبيت حدود «الأمة الطائفة» عند حدود التحكم «بالمستقبل المضمون» لمصالح الطائفة ولمقدراتها المتنامية في تلك الحقبة على كل الصعد.

وفي العام ١٩٤٣م، اتخذ بشارة الخوري الماروني قراراً اقلوباً على مستوى المسيحيين، الذين كانوا أكثر ميلاً للإبقاء على الانتداب الفرنسي «حماية لمصالحهم ومنظومة قواهم على كل المستويات»؛ لاقاه في ذلك رياض الصلح السني الذي اختار لبنان في حدوده الحالية، فيما كانت الأكثرية الإسلامية لا تزال تحلم بالوحدة العربية المتاهية مع الأمة.

وفي العام ١٩٨٩م وافق البطريرك صفير على اتفاق الطائف على الرغم من معارضة أكثرية المسيحيين له.

وفي العام ٢٠٠٠ أفرج الإمام شمس الدين في وصاياه الثمينة للشيعة في لبنان، والتي دعاهم فيها إلى الاندماج في المجتمع الوطني، فيما كان شيعة آخرون يندفعون في صدارة مشروع إقليمي، وكان رأيه أقلوياً في تلك الفترة في محيطه الشيعي.

استحق محمد مهدي شمس الدين شرف الانتماء إلى طائفة الأقلية في لبنان، الأقلية السياسية المؤمنة بفرادة التنافذ اللبناني، وبكونه مصلحة للجماعات السياسية اللبنانية وللبنان الوطن، والذي أصله في المجال اللبناني بدفاعه عن الصيغة اللبنانية؛ هذه الطائفة التي تعتبر أن المظلة الوطنية هي الضمانة الوحيدة لضمان حقوق الأفراد والمجموعات في دولة مدنية، اعتبر المجمع البطريركي الماروني في العام ٢٠٠٦ أن وظيفتها الأساسية هي «التوفيق بين دائرة الفرد والجماعة والدولة» وحقوق هؤلاء ومصالحهم.

٤. رسولية فكر الإمام الناقد ورساليته

تجسد وصايا الإمام شمس الدين فكر الشيعة الناقد وتمتاز برسولية ورسالية على السواء؛ إنها وصايا رسولية، أي أنها موجّهة إلى الداخل اللبناني، وتحديداً إلى الشيعة والمسلمين اللبنانيين، وهي وصايا رسالية، أي أنها موجهة إلى العالم العربي والإسلامي على السواء. وبهذا يرتقي الإمام شمس الدين إلى مقام المبشر بالرسالة اللبنانية الخالصة.

في بعدها الرسولي الداخلي، تؤكد وصايا الإمام شمس الدين، «المتكلم في شعبه»، أن معادلة التوازن اللبناني قائمة على التوازن الوطني ولا على موازين القوى والمصالح، وأن الاسلام اللبناني تواصلي في المجال الاجتماعي ومتآلف فلسفة الوصل لا فلسفة الفصل. فبعد أن ناصر ديمقراطية عددية ارتد عنها إلى أخرى توافقية. وأعتقد جازماً أن النصح الذي يصح للشيعة في لبنان يصح كذلك لكل المكونات اللبنانية الأخرى؛ فمقاربة الإمام شمس الدين هي إحدى الإجابات الرصينة والممكنة لخروج هؤلاء من مخاض المحنة اللبنانية الحالية ببعدها الداخلي.

أما الوصايا في بعدها الرسالي والخارجي، فتؤكد على أن تفعيل الترقي في بلاد العرب والمسلمين قاطبة يتم من خلال الموالفة بين الانتماء الأممي والانتماء الوطني. فالقاعدة التي أرساها الإمام تعتبر أن حدود عشق الله أممية في المعنى الديني فيما حدود عشق الوطن جغرافية بالمعنى الاجتماعي والثقافي.

فالإمام شمس الدين هو المعبر الحقيقي عن العقل الشيعي الناقد في لبنان والفضاء الإسلامي والشيعي، والذي نأمل أن يمثل أكثرية، ولو غير منظورة في المرحلة الراهنة، في طائفته الكريمة، في لبنان والعالم العربي.

٥. تسامح وأخوة في وحدة التنوع

أخيراً أسهم نهج الإمام شمس الدين، مع جهود متنورين آخرين في المجال العربي والإسلامي، مسيحيين ومسلمين، في ولادة وثيقة الأخوة والتسامح، التي وقعها البابا فرنسيس وشيخ الأزهر في الأمارات العربية المتحدة، والتي ننتظر أن يوقع على مثيلتها السيد السيستاني والبابا فرنسيس خلال زيارة هذا الأخير المرتقبة إلى العراق خلال الشهر المقبل.

إن خبرة الإمام هذه هي خلاصة خبرة التنافذ والتناضح الاجتماعي الثقافي اللبناني، وهي الخبرة اللبنانية المعبر عنها شيعياً، والتي تتماهى مع الخبرة اللبنانية المعبر عنها مارونياً وما إلى سوى ذلك؛ إنها أعجوبة الوحدة في التنوع الذي يرتقي فيه الاختبار الإنساني إلى حيز الاعتقاد فيؤصل ويصبح فقهاً.

http://www.thulatha.com

news@thulatha.com

+966 (59) 528-1030

thulathaforum

thulatha_forum